ثقافة الإمعة أو العصبية والتبعية

ينمو الفرد في مجتمع ما بشكل صحي عندما تغذى لديه الفردية والانضواء تحت الجماعة بالوقت ذاته، فتنمو لديه أساليب المحاكمة العقلية وتمحيص الجيد من السيئ واستخدام العقل، وفي الوقت ذاته مازال ينتمي إلى جماعة أو قبيلة أو إقليم أو بلد وهو تبع له بمواطنيته وبانتمائه وبولائه، فلا هذا يلغي ذاك والعكس صحيح. لكن عندما تبدأ الجماعات بإلغاء الفردية والمحاكمة العقلية وتطغى عليها التبعية المطلقة، فإنها ستؤدي إلى العصبية البغيضة، وهي إنما سميت عصبية لأنها محاكمات تخرج من العصبونات اللاإرادية، أي إن المحاكمات لا ترد على العقل بل تكون ردود أفعال غير قادرة على التمحيص والتفريق والمحاكمة، وعندها يتحول المجتمع إلى عقلية القطيع والتبعية والعصبية البغيضة عملاً بقول دريد بن الصمة:

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

قيل في المثل: " **حطّ راسك بين الروس وقول يا قطّاع الروس**" وهذه تماماً عقلية القطيع التي تنقاد دونما تفكير أو روية.

وقيل أيضاً: "**حسب السوق بنسوق**".

وقيل: "**إذا حلق جارك بلّ ذقنك**" (بلّ أي بلل ذقنك بالماء فستحلق بعده). ولم تدع التبعية حتى الطعام والشراب واللباس فقيل: " **كول على ذوقك ولبيس على ذوق الناس**".

إذا قمنا بتحليل ما يرد على لسان الكثير منا في كلامه اليومي نرى أنه يغص بالعصبية وبالانكماش العرقي أو الديني أو حتى المناطقي، أو بين الحارات أحياناً، فأهل الميدان هم كتلة تختلف عن أهل الصالحية، وأهل الصالحية هم

كتلة تختلف عن أهل الشاغور، أما أهل المالكي فهم مجتمع يختلف تماماً عن أي مجتمع آخر، وله قوانينه التي تحكم ساكنيه من الأغنياء والتجار، وعلى ذلك يمكن القياس، ثم نجد أن سكان دمشق ينكمشون على أنفسهم تجاه محافظات أخرى أو حتى لكنات أخرى، وهذه تنعكس بشكل جلي على ما يجري على ألسنة الناس من أمثال؛ فعندما توصف الألبسة ذات الألوان الفاقعة بأنها: "**مفلّحة**" إشارة إلى لباس الفلاح الزاهي الألوان، أو مثلاً عندما يقال عن الحموي: "**ملحو على ديلو**" أي إنك لا تعرف متى يرتد عنك ويخاصمك، أو يوصف الحمصي بالبسيط أو الساذج، وغيرها من الأمور، كل ذلك من شأنه أن يضر بالعلاقات الإنسانية ويكرس المناطقية البغيضة والعصبيات الهدامة، ولم يأت ذلك إلا من عقلية التبعية التي تجري في المنطقة بعينها وبين العائلات حيث يتم توارث هذه المقولات جيلاً عبر جيل لتكرس منطقاً مرفوضاً.

قيل في المثل الشعبي: " **إذا جنّ ربعك جنّ معو**".

وقيل: " **إذا كنت بين العوران عوير عينك**".

فلسفة التبعية

إذا أردنا أن نسبر أعماق هذه الظاهرة وكيف تناولها المفكرون عبر التاريخ نجد أنه كلما ذكرت النهضة تتجه الإشارات إلى أولى الدعوات التي طرحها من يسمون بـ: (رواد النهضة)، وتستدعى أسماء من التاريخ، منهم محمد عبده ورشيد رضا وجمال الأفغاني، ولا ننس عبد الرحمن الكواكبي في سورية، ومالك بن نبي بالجزائر، وإذا أخذنا العامل المشترك بين كل هؤلاء نجد أنهم صنفوا التبعية بالعلة الأولى التي جعلت هذه الأمة تدخل في النفق المظلم الذي ما زلنا نعيش في تداعياته، وهو نفق التبعية واتساع الهوة بيننا وبين الأمم الأخرى، حيث إنهم رأوا أن ما وقع به العرب كان سبباً رئيساً في تدهور الإنسان العربي وفي سقوط هيبته بين الأمم، وهذه التبعية هي جزء لا يتجزأ من المشكلة الكلية، وعدّوا هذه التبعية بمنزلة الحمَّى التي تظهر على جسم المريض، فبالقدر

الذي تكون فيه مهمة بذاتها بالقدر الذي يجعلها مجرد إشارة إلى أمر أساسي آخر. وبقدر أهمية السيطرة على الحرارة لأنها قد تشكل خطراً بحد ذاتها، بقدر ما تكون هي فقط عرَضاً من مجموعة أعراض لمرض أهمّ وأكبر.

يقول بطرس البستاني:

"وما دام العرب يكتفون بالتقليد والنقل، ولا يريدون أن يتعبوا أنفسهم بالفحص والتحقيق، لا يؤمل تقدمهم في العلوم والفنون. لا تهج أيها الدم العربي ولا تغتظ من الحق عندما تسمع واحداً مشتركاً فيك يبين لك حقيقة حالك، لا على سبيل التقريع والطعن بل لأجل إيقافك على الحقيقة".

لا تخلق التبعية مع الإنسان، وإنما هي نوع من التصرف الغريزي التقهقري الذي يعود إليه الإنسان في حالة إما اقتناعه بعدم فائدة الوسائل التي تجعله يتقدم ويتطور أو يتغلب على العائق الذي وقع فيه، أو أنه نوع من الدفاع المؤقت الذي يلجأ إليه الإنسان تجاه مشكلاته.

ويعتقد بعض المفكرين أننا وقعنا في التبعية لدرجة أنها أصبحت سلوكاً فينا، يقول عبد الرحمن الكواكبي: "من أقبح أنواع الاستبداد استبداد الجهل على العلم، واستبداد النفس على العقل".

فحين تنقلب التبعية إلى نوع من السلوك الذي يتم تناقله بين الناس ثم يورث من جيل إلى آخر هذا يجعل الأمر أخطر من أن ينظر إليه على أنه عرض، وإنما تحول إلى مكون أساسي لثقافة تتناقلها الأجيال، وهي: أنت ضعيف إذن أنت تابع للأقوى، وعليه فإن القضية تبدأ من هنا، فتأتي أمور أخرى مستحدثة لتكون تسميات مختلفة لمضمون واحد، فما العولمة والغزو الثقافي والشركات الكبرى العابرة للقارات إلا أشكال مختلفة للتبعية التي تعانيها الشعوب الأضعف، سواء في مأكلها أو مشربها أو فكرها أو لباسها.

كل هذه وغيرها هي أعراض لمرض التبعية. فالتبعية إذن هي تظاهرة فكرية، وهي ميل الإنسان وهواه نحو الغرب، وحلمه بالوصول إلى قوته، في حين

تحول هذا الميل وهذا الحلم الآن إلى حقيقة يعيشها الإنسان حتى في منزله، ولعل التجربة الكبرى التي تعيننا على فهم التبعية هي ما أجرته إحدى الشركات اليابانية عندما خلقت شخصية كرتونية ولعبة صغيرة كان الهدف منها معرفة مقدار تبعية العالم، فأخرجوا شخصية البوكيمون ووضعوا لها دعاية بقوة مالية معينة، وإذا بهم يتفاجؤون أنه لم يبق طفل في العالم مهما كانت ديانته وخلفيته إلا سمع بها أو اقتناها، لقد اكتشفوا من بعدها أن العالم أصبح تابعاً بشكل عجيب، ما يعني أن الطفل مهما يكن موقعه الجغرافي لديه جاهزية لتقبل أي شكل من أشكال التبعية مهما كانت قوة الثقافة التي يحملها، فالأمريكي الذي اقتنى البوكيمون استطاعوا أن يصلوا إليه بالمقدار ذاته الذي وصلوا به إلى الطفل في العالم الثالث الذي اقتنى ورقة صغيرة عليها بوكيمون أو عرف هذه الشخصية بالحد الأدنى، لكنهم استطاعوا أن يجعلوا هذه الشخصية جزءاً من ثقافته، ومن هنا اكتشفوا أن دول العالم الثالث مع التحفظ على هذه التسمية (نقترح تسميتها بدول الجنوب التي أفقرتها ونهبت ثرواتها دول الشمال) قبلت بالمشروع وقبلت بالتبعية ورضيت أن تعيش في هذه الظروف، ومن ثم فنحن نعتقد أن هذه الظاهرة لافتة للنظر، وأنها دليل علمي وتجربة واقعية في مخابر التجارب أن الإنسان الذي تخلى عن مبادئه الأساسية وهويته الثقافية يصبح تابعاً.

يقول المثل الشائع: "**حطّ راسك بين الروس وقول يا قطّاع الرُّوس**". هذا القول يمثل ثقافة التبعية التي تؤدي إلى العصبية؛ أي إلغاء العقل تماماً واتباع الناس دون تحكيم لرأي في أي موضوع، وإنما يصبح الفرد تبعاً للآخرين بعقلية القطيع، كذلك حين يقال: "**كيف السوق بنسوق**"، أي ليس للفرد أي إرادة، بل يتبع ما يوجد في السوق أو ما يفعله القوي، وهذا سيخلق تياراً معيناً ونوعاً من الموضة، فكل ما عليك هو الاتباع كي تحظى بالقبول.

تأتي مثل هذه الأمثال لتريح الجيل وتنتقل من جيل إلى آخر، وهذا النوع من الأمثال مرشح للإلغاء تماماً من ثقافتنا، ولابد أن يوضع في متاحف التاريخ حتى نضحك عليها ونرى أنفسنا تحت المجهر كيف أن الجيل الذي ردد هذا

الكلام تغلغلت فيه روح التبعية إلى حد أنه لم يعد يرى في هذه الأمثلة أي إهانة فكرية.

مثل هذه الأقوال وغيرها فيها تبعية غير مقبولة، وفيها إلغاء تام للشخصية الإنسانية البشرية، وفيها نزع جذري لما أكرم الله الإنسان به من التساؤلات الإبراهيمية، فنحن مطلوب منا ألا نقبل منطق ﴿مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۗ﴾.

سلوك أم وراثة

هذه الثقافة التي تمظهرت بالتبعية هي الوجه الآخر للتخلف، فإذا انتشر التخلف في مكان ما فغالباً ما تتبعه التبعية إلى ثقافة أخرى أقوى؛ وليس بالضرورة أن تكون تلك الثقافة أفضل، من جهة أخرى نرى بأن التبعية قد تكون أيضاً ناجمة عن ضغط يتعرض له الإنسان، فيستبدل بسلوكاته سلوكات دفاعية؛ أي نعود إلى نظرية فرويد أن الإنسان يعود إلى العيش الغريزي بغرائزه، ومن ثم فقد يكون هذا أحد الأسباب، كذلك لا ننسى أنه منذ أن غربت الشمس عن الحضارة العربية الإسلامية والمنطقة تعيش من غزو إلى آخر، ما جعل الأمم التي تعيش في هذه المنطقة تلجأ إلى عقلية أننا نريد أن نعيش.

هذا النوع من الضغط وشبه الاستمرارية بالحروب ترجع الإنسان دائماً إلى أن يتبنى قضية العيش الغريزي أو يلجأ إلى سلوكات دفاعية، أحد هذه السلوكات ثقافة الإمعة؛ أي: أتبع ما يفعله الآخرون فأسلم، أي إنني إذا اتبعت ما يأمرني به القوي فغالباً سأعيش في بر الأمان، وهذا ما يفعله الاستعمار.

لننظر إلى فرنسة عندما قامت بالثورة، إلى الآن تعيش ما يفتخر به الفرنسي وهو أنه صدَّر إلى الكون الثورة الفرنسية التي شعارها: يحق لأي فرنسي أن يفكر وأن يرفض أي شيء لا يقتنع به، وهذا تماماً ما نحتاج إليه، وهو ثورة فكرية هائلة وهذا ليس بالسهل، لأننا نرسف في ألف عام من الغزو الفكري ومن الغزو الاستعماري بأشكاله المختلفة.

نريد أن نبدأ الآن على مستوى ضيق بالرجوع إلى معتقداتنا؛ بأن نكون أكثر

وعياً للأمثال التي نقولها يومياً ولا نلقي لها بالاً، وما هي في الحقيقة إلا جرثومة نورثها لأولادنا غير عابئين أنها تحمل سماً زعافاً.

عندما يقول أحدنا: "**إذا حلق جارك بلّ دقنك**"، فنحن نورث أبناءنا الرهبة والخوف من المواجهة، ومثل هذه الأقوال استؤصلت من الغرب الذي ثار على حاله ومجتمعه وثقافته المتخلفة التي أبقته مئات السنين في الظل وفي عصور الانحطاط، واستبدل بها ما هو نقيض ذلك، فشجعوا على الشخصانية والقوة الذاتية، وكل ما يدعو إلى التفكير والتأمل، وما يجعل الإنسان يطور نفسه ويتحرك، واستبعدوا كل ما يجعله يقبل بالمألوف أو أنه يقبل حتى بالمتوارث على أنه صحيح، بل عليه أن يعمل عقله، لذا يجب أن تعد هذه الأمثال التي تدعو إلى الإمعة جزءاً من التخلف.

هنا قد يسأل سائل: إذا نزعنا هذه الأمثال فهل سيتغير شيء من حالنا؟

فنقول: هي بداية اليقظة؛ فعندما يبدأ الكبار بتذكير الأولاد بعدم قول وتكرار هذه الأمثال، فإنما نحن ندعو لليقظة، وهي بداية صغيرة على مستوى مدينة صغيرة، لكنها ستكبر وستخلق جيلاً لا يمكنه أن يكرر ماكان يقوله الآباء، ولقد سمعنا من أحد أولاد هذا الجيل يقول: "**العرب جرب**"، وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على أن انتقال هذه النوع من الإرث يجعل الجيل الجديد يردد أقوالاً يسب فيها نفسه دون أن يشعر بأنها إهانة له.

بالخلاصة: إن أردنا أن نحسن القول في مثل هذه الأمثال فإننا نقول: هي سلوكات لجأ إليها أجدادنا الذين عاشوا في وقت معين بهدف الخلاص من أمر ما، أما إذا ذهبنا أبعد من ذلك فنقول: إن هذه الأمثال جاءت إلينا بطريق ما، وأدخلت في ثقافتنا، وينبغي أن نمحص ما نقول في هذا الطور الجديد من الحياة والفكر والقرية الكبيرة الواحدة، وهذا التقدم التكنولوجي الفكري الذي يصاحبه حضارة فكرية جديدة، من الضروري بمكان، ونحن نعيش في عالم محونا فيه الأمية والجهل، أن نمحو منه الإمعة، وأن نلغي ما يسمى بفكر التبعية ونلغي هذه الأمثال ولا نفتخر بها.